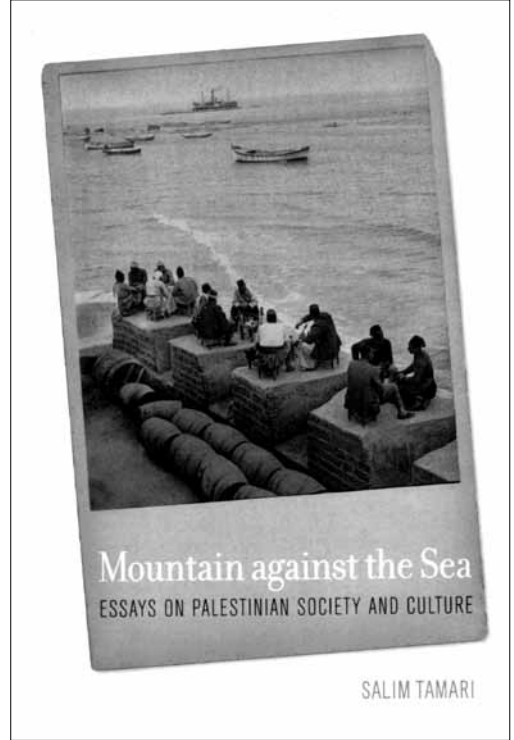


# الجبل ضد البحر: دراسات في المجتمع والثقافة الفلسطينيين<sup>1</sup> مراجعة ألين فليشمان

الفلسطينيين، فتحدث بإعجاب، وأكثر من مرة، عن أسلوب المرّبي خليل السكاكيني في الكتابة باللغة العربية ووصفه بأنه «عملي وخالٍ من الزخرفة» (ص 2). وتمازي، في مقالات هذا الكتاب، والتي تم نشر العديد منها سابقاً، يكتب هو أيضاً، بأسلوب «عملي وخالٍ من الزخرفة» إلى حد كبير، مركزاً على الموضوعات التي تُعرّف بالتاريخ والنسيج الاجتماعي والتجربة الفلسطينية. وهو مهتم، قبل أي شيء، بالحدّات، وبالعناصر التي ساهمت في صنع حدّات فلسطينية «غير مكتملة» (ص 3). إنه يضع الحياة الحضريّة الفلسطينية، والمجتمع، والمثقفين والثقافة الفلسطينية في سياق شرق متوسطي، ويبين كيف أن فلسطين كانت جزءاً متناغماً مع هذه البيئة الشرق المتوسطية، لكنها، في النهاية، «نُحيت جانبا» نظراً إلى كونها «فُصلت قسراً عن ذلك السياق» (ص 4) في سنة 1917. وعلى الرغم من أن أغلبية المقالات تاريخية، أو تتميز بنزعة تاريخية قوية، فإنها تشمل أيضاً مواد تتعلق بالمجتمع الفلسطيني المعاصر، فتدمجها في خلفيتها التاريخية، وتتبع التأثيرات التاريخية التي شكّلت الظواهر المعاصرة. ويعرض الكتاب كنزاً دفيناً قيماً وغنياً من المواد التاريخية والأدبية التي تتضمن مذكرات ويوميات شخصية كتبها عينة متنوعة جداً من المثقفين الفلسطينيين في أواخر العهد العثماني، وقد قدّم تمازي، بالتعاون مع مثقفين آخرين مثل عصام نصار، خدمة حقيقية في استعادة المواد، ونشرها، واستخدامها.

يتألف الكتاب، بصورة عامة، من نوعين من المقالات: الأول، يفسر التغيّرات الاجتماعية التي شهدتها المجتمع الفلسطيني من خلال دراسة ظواهر مثل علاقات الفلسطينيين المتعارضة بالبحر، والانقسامات الثقافية بين أهالي الساحل والأهالي داخل البلد، وتطوّر اعتبار الثقافة الريفية والحياة الشعبية «الأصيلة» والأسطورية كما لو أنها ذات وجود مادي، وذلك من خلال أعمال بدأها سكان «أصليون»، مثل الطبيب الإثنوغرافي توفيق كنعان، وحوارات بين ثلاثة أجيال من ضحايا النكبة تمحورت حول ذكريات عن النكبة/العودة أعطيت شكلاً مثالياً وجرى تركيبها بطريقة انتقائية؛ الثاني، يتألف من أبحاث تستند إلى سير ذاتية لمثقفين فلسطينيين، مثل: المرّبي خليل السكاكيني الذي يصف نفسه بأنه «أمير الكسل والتبطل»، والموسيقار الساعي وراء المتعة واصف جوهريّة، و«آخر سيد إقطاعي»، عمر الصالح [البرغوثي] من دير غسّانه، والكاتب العربي - اليهودي إسحاق الشامي، وأحد كوادر الحزب الشيوعي الفلسطيني، نجاتي صدقي. وثمة تفاوت ضئيل بين عدد قليل من تلك المقالات، إذ إن بعضها أكثر اكتمالاً وأغنى، من حيث



أنجز سليم تمازي، وهو أستاذ علم الاجتماع في جامعة بير زيت ومدير مؤسسة الدراسات المقدسية، دراسةً ممتعة وساحرة وواسعة الاطلاع عن المجتمع والثقافة

- 1 Salim Tamari, *Mountain Against the Sea: Essays on Palestinian Society and Culture* (Berkeley: University of California Press, 2009). 237 pages.

المصدر:

*Journal of Palestine Studies*, vol. XL, no. 1 (Autumn 2010), pp. 94-104.

ترجمة: أمل حمود.

\* أسنادة مشاركة في التاريخ في جامعة دايتون - الولايات المتحدة.

عمق البحث والاكتشاف، ويعود ذلك أساساً إلى طبيعة المصادر الأولية (تتفاوت إلى حد كبير أنواع المادة التي قدمتها مصادر السير الذاتية، ويكمن بعض الثغرات البارزة في غياب مذكرات أو يوميات نسائية، وفي بعض الحالات، معلومات شخصية عن الكتاب الذكور).

هناك خيوط وموضوعات معينة تربط بين هذه المقالات، فثمة فكرة تعاود الظهور، مراراً وتكراراً، في سياق الكلام على الحداثة التي لم تكتمل، وهي كيف أن إحدى النتائج الرئيسية للنكبة، كانت فقدان فلسطين مكتسباتها الحضريّة (المدينة)، وتجربتها "فعلياً من مدنها الساحلية، وإزالتها، على المستوى الثقافي، من التقاليد العالمية الحضريّة" التي «انتقلت إليها من خلال صحافتها، وأحزابها السياسية، ونقاباتها العمالية، وثقافتها العلمانية» (ص 45). ويهتم تماري بالانقسامات والصراعات الظاهرية بين الكوزموبوليتانية (النزعة العالمية) والنزعة المحلية، وبين المجتمعات الساحلية والجبليّة، وقبل أي شيء، بالتوترات والتناقضات الداخلية التي أنتجت رداً الفعل الفلسطيني إزاء التحولات الاجتماعية والحداثة وتفاعلات الشعب الفلسطيني معها. وهو يفكك، بصورة حاذقة، الفرضيات الأساسية بشأن «التقليد»، والبساطة، أو السلبية، من جانب أشخاص وجماعات تاريخية فاعلة، ويبيّن، بدلاً من ذلك كله، السلاسة، والدينامية، والازدواجية التي ميّزت أفعالهم وردودهم على تجاربهم. وفي الفصل المتعلق بإقامة خليل السكاكيني في الولايات المتحدة خلال الفترة 1907 - 1908، على سبيل المثال، حل تماري إشكال المفارقة الظاهرية المتمثلة في ردة الفعل المحافظة لأدباء حجريين وغير تقليديين في تفكيرهم تجاه بعض مظاهر الثقافة والمجتمع الأميركيين، ونفورهم من هذه المظاهر (وأبرزها التفاعلات بين الذكور والإناث). وفي سياق وصفه كيف أدى تدفق المهاجرين من الريف إلى

تعقيد العلاقة الاستغلالية بين المدينة والريف، يشرح تماري كيف «أن ثقافة المجتمع الريفي، من جهة، غزت المدينة، في حين تفشت [من جهة أخرى] في المجتمع الريفي [ثقافة] السلع والمال ((الحضريّة))» (ص 48). ولا تسفر استكشافات تماري عن أي تجاوز أو استقطاب بين «التقليد» و«الحداثة»، فهذان المفهومان تأسيسيان بصورة متبادلة، وتتوسطهما تأثيرات متباينة ومتفاوتة تنساب في اتجاهات متعددة.

ويتمثل أحد جوانب هذا الكتاب الأكثر إبهاماً في عرضه صورة جماعية للحظة معينة ومهمة في التاريخ الفلسطيني (أواخر العهد العثماني - بداية الانتداب)، تم ابتداعها من المادة المتضمنة في السير الذاتية. ويتميز تصوير تماري للمجتمع الفلسطيني بكونه أكثر تعقيداً، ودينامية، وتنوعاً مما قدّم سابقاً: الأشخاص الذين يفهمهم، وطابع مدينة القدس الذي يسترجعه، مفعمان بالحيوية بشكل استثنائي؛ القدس، بعيداً عن كونها «المدينة المتجهمة والمحافظة والكتيبة» (ص 88)، مثلما يصورها بعض الأشخاص، تظهر هنا بصفتها بيئة حضرية تتسع للمتعة (كما يوضح ذلك [سلوك] واصف جوهريّة الذي شارك في «جلسات لهو وعريضة مع أفراد عصابات وسفاحين» [ص 80])، وتتسع للتبطل (الفلسفة الرئيسيّة لعضو «حزب المتشردين»، خليل السكاكيني)، وللشبان البالغين سن الرشد (تحول عمر الصالح من [التمسك بـ] الامتيازات الريفيّة [الموروثة من مكانة عائلته] إلى الكوزموبوليتانية)، والتحول إلى الشيوعية (نجاتي صدقي)، كما تتسع لعلاقات الطوائف فيما بينها، وهذا بعض ما اتسمت به القدس آنذاك. ويتمنى المرء لو أن هذه الثقافة وهذا المجتمع مزدهران اليوم، لكن، لحسن الحظ، نجد في هذا الكتاب الرائع إحياء لهذه اللحظة الفريدة من التاريخ الفلسطيني.